# قراءة في كتاب :"جمهرة الرحلات الجزائرية الحديثة في الفترة الاستعمارية" (1830-1962)

**A review in the book: "The blog of Modern Algerian Trips in the Colonial Period" (1830-1962)**

*عبد الرحمن غربي
gharbiabr90@gmail.com
د.إسماعيل زغودة
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2020/08/15 تاريخ القبول:2020/09/03 تاريخ النشر: 2020/09/14

**الملخّص:**

تسعى هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على جهود أحد أبرز المهتمين بفنّ أدب الرحلة في الوطن العربي عموما والجزائر خصوصا، هو البحّاثة الدكتور عيسى بخيتي الذي أخلص نفسه للبحث في مضمون الخطاب الرحلي الجزائري ومكاشفة غوامضه وسبر أغواره، ولعلّ صنيعه الضخم المتمثل في مدونته: "جمهرة الرحلات الجزائرية الحديثة في الفترة الاستعمارية" يشهد له بهذا الفضل، فلم يسبقه سابق إلى جمع معظم الرحلات التي دوّنت في هذه الفترة العصيبة من تاريخ الجزائر والتي كادت أن تعصف بها عوامل الدهر من دروس و نسيان وإهمال وشتات، وهذه الورقة البحثية تعمل على مراجعة جدية لما احتوى عليه كتاب الجمهرة من رحلات، وذلك من خلال بيان أنواعها التي تضمنتها، وتحليل بعض ما ورد فيها من خطابات رحلية على اختلاف أصحابها وتفرق مللهم وخلفياتهم الفكرية.

**الكلمات المفتاحية:**

أدب الرحلة – الخطاب الرحلي – جمهرة الرحلات - الفترة الاستعمارية.

***ABSTRACT:***

***This search seeks to shed light on the efforts provided by one of the most prominent people interested by the art of touring literature in the Arab world in general and Algeria in particular, This is the researcher Dr. Aissa BEKHAITI, who had devoted himself in researching about the contents of the Algerian travel literature discoure and to explore his ambiguities, and probably his work represented in his blog under title: "The blog of modern Algerian trips in the colonial period betwin 1830-1962" attested to him with this favor especially, that it hasn't been preceded by others in collecting most trips that were recorded in this difficult period in the history of Algeria, which were almost threatened to be destroyed by forgetfulness, neglect, and despersion, besides This research paper work to make a serious review on the travels contained in the book by explaining the types that it included, and analyzing some of trips speeches had seen mentioned, according to different writers and their intellectual backgrounds..***

***key words:***

***Trip literature - Trips discoure - crowd of trips - colonial period.***

## المقال:

لقد ظلت الرّحلات الجزائرية ردحا طويلا من الزمن أشتاتا متناثرة، لم يتحقق لها الاجتماع في مدونة واحدة تضم أصنافها وتلملم شعثها، بسبب عوامل الزمن وتقاعس الخلف عن النهوض بموروث السلف، ناهيك عن وعورة المسلك وصعوبة الملتمس، ولا نعدم صوابا إن قلنا إنّ التراث الرحليّ الجزائري ضخم قزّمه

* المؤلف المرسل

عدم التحقيق وتضاءل خطره مع الإهمال وضعف الاهتمام به، ولم يُمَكَّن التحقيق إلاّ لنصوص معدودات سلمت من غائلة الخَبْءِ على رفوف المكتبات وطيّات الصحْف، وحتّى تلك التي حُققت وأخرجت للناس لم يكن حظها بأوفر من حظ غيرها، فلئن سلمت من الضياع فلم تسلم من النقص والتصحيف والتحريف، فإن سلمت من ذلك كلّه شَكت عدم الاهتمام من الدارسين الذين ضربوا عنها الذكر صفحا وطووا عنها كشحا، ومن أعجب ما لمسناه في أدب الرحلة الجزائري ورأيناه رأي العين هو أنّ الرحلات التي قام بها أصحابها إبّان الاستيطان العثماني بالجزائر حصل لها شرف الذيوع والانتشار كرحلة أبي العباس المقري(ت1631م) ورحلة أحمد البوني (ت1739م) ورحلة الحسين الورثيلاني (ت1779م) ورحلة ابن حمادوش (ت حوالي 1785)[1] ورحلة أبي راس الناصري (ت1824) وكلها رحلات إن لم يتم تحقيق نصوصها كاملة فقد حققت أجزاء وفيرة منها تدل على سعة علم أصحابها وقيمة رحلاتهم، بينما تم تجاهل الرحلات التي دوّنها أصحابها في أزمنة لاحقة ونخصّ بالذكر الرحلات التي كتبت إبان الفترة الاستعمارية اللهم إلا إذا استثنينا منها تلك التي كانت بمباركة السلطات الاستعمارية وكانت ثناياها تسبّح بحمد فرنسا ظاهرا وباطنا خاصة الرحليتين الصيامية والقادية اللتين كان صاحباهما من ذوي الولاء لفرنسا الذين باعوا ذممهم لها واشتروا بذلك عرضا قليلا من الدّنيا واتبعوا من لم يزدهم اتباعهم لها إلا خسارا.

فتمّ للرحلات الأولى شرف التحقيق والطبع والنشر وباءت الثانية بالبوار والإهمال، على بعد تلك وقرب الأخيرة زمنا، ولعلّنا في هذا المقام نلتمس لها أعذارا لاعذرا فردا، فالرحلات القديمة تمت في سعة من الأمر فلا رقيب ولا سلطة تقمع ولا حدود تمنع ولا تراخيص تشرع، ناهيك عن استقلالية المؤلفات فكل رحلة كانت مؤلفا مستقلا بذاته لا حاجة له بصدور الجرائد ولا صفحاتها، أما الفترة الاستعمارية فقد عرف عنها ما عرف من تضييق السلطات الاستعمارية، ومحاربتها لكل ما هو عربي خاصة إذا كان يحمل أفكارا تحرّض على الانتفاضة أو تدعو إلى الثورة، بل إن فرنسا في هذا المقام كانت تحاسب الجزائريين على النّوايا فما ظنُّك بالأقوال والأفعال.

فحصل للرحلات الأولى نوع من الاستقلالية فذاعت وانتشرت، وارتبطت الأخيرة بالجرائد فانكمشت وضمرت إلا عن فئة مثقفة قليلة من الناس، وكانت معظمها تقارير صحفية تنشر تارة بصفة دورية وتارات أخرى تنشر بصفة متقطعة وعلى فترات متباعدة، فعسر لأجل ذلك جمعها وحصل ذلك لفئة قليلة منها بشق الأنفس، وقد كاد هذا التراث أن يضيع وتندرس آثاره وتنقطع أخباره، وكادت عوادي الزمن تعدو عليه لولا لطف الله الذي قيّض له من أحفاد هؤلاء رجلا غيورا على مآثر الأجداد لم يرض أن يصير تراثهم أثرا بعد عين، فاستجمع الهمم وشمّر عن سواعد الجدّ وجعل همّه اخراج تلك الرحلات للعلن وتحريرها من قيد صفحات الجرائد وخزائن المكتبات ومخابئ الزوايا والتي مافتئت الأَرَضَة تسطو عليها بعد أن وجدت فيها مرتعا خصيبا، فنفض عنها غبار الزمن، وجمع أشتاتها وأحيا أمواتها وبعث أسماء أصحابها من القبور بعد أن كادت تبلى أسماؤهم كما بليت عظامهم، وقد قيل قديما من أرخ عالما فكأنما أحياه، ذاك هو صنيع الدكتور عيسى بخيتي.

**الجمهرة ينفخ الروح في أدب الرحلة الجزائري الحديث.**

**جمهرة الرحلات الجزائرية الحديثة في الفترة الاستعمارية (1830-1962).**

جاء في مقاييس اللغة لأحمد ابن فارس (ت395): الجيم والهاء والراء أصل واحد وهو إعلان الشيء وكشفه وعلوه[2].

وذكر صاحب لسان العرب ابن منظور الافريقي (ت711ه) في مادة جهر: جمهور كلّ شيء: معظمه، وقد جمهره، وجمهور النّاس: جلّهم، وجماهير القوم: أشرافهم، وجمهرت القوم إذا جمعتهم، وجمهرت الشيئ إذا جمعته،.. والجمهرة: المجتمع.[3] فهي أصل يدل على الاجتماع والائتلاف

وجاء في محيط المحيط لبطرس البستاني (ت1883م) جمهر الشيء جمهرة: جمعهُ، وجمهرة العرب كتاب يضم بعض أخبار الجاهلية... والمجمهرات سبع قصائد من أشعار العرب الجاهلية في الطبقة الثانية بعد المعلقات.[4]

وقد اشتهر عند العرب كثير من الجمهرات التي اعتنى أصحابها بجمع كلّ ما تناثر ذات اليمين والشمال من نفس الفنّ فجعلوا جمهراتهم قيدا لأوابده، ولعّل أشهرها جمهرة اللغة لابن دريد، جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري، جمهرة أنساب العرب لابن حزم الظاهري.

أما كتابنا هذا كتاب جمهرة الرحلات الجزائرية فهو كتاب ضخم يتألف من سبعة أجزاء جمع فيه صاحبه كلّ ما أمكنه من الرّحلات في الفترة المدروسة بين (1830-1962) وربما تجاوز ذلك تجوّزا طفيفا قُبيل و بُعيد هذا الإطار الزماني، فجمع جلّ ما كتبه الرحالة الجزائريون الذين اشتغلوا بالصّحافة والإصلاح، وقد تمّ نشر معظم هذه الأعمال الرحلية على صفحات الجرائد التي كانت تظهر حينا وتتعرض للوأد في مهدها أحايين كثيرة بفعل التضييق الاستعماري على منابع الفكر والإشراق وسنّه لقوانين جائرة لتكميم الأفواه ومصادرة الحريات الشخصية وعلى رأسها حريتا الفكر والتعبير[5]، ومن بين أشهر المنابر الإعلامية التي واكبت النهضة القومية وعملت على أن تكون عنصرا فاعلا فيها جرائد النجاح(1919) الشهاب (1925) المنتقد (1925) البلاغ الجزائري(1926)، الفاروق، البصائر، لسان الدين، والرشاد وغيرها.

وقد عمل الدكتور عيسى بخيتي في "جمهرته" على مدار سبعة أجزاء على جمع و إعداد و ضبط وتحقيق نصوص الرحلات وترتيبها ترتيبا كرونولوجيا مبتدئا بالأقدم وصولا إلى الأحدث وقد صدّر كلّ رحلة بالتعريف بصاحبها ما أمكنه ذلك بتوفر مصادر التعريف، وقد تتعذّر عليه ترجمة بعض الرحالين ممن انقطعت سبل تعريفهم، كما أورد نصوصا لكتاب مجهولين آثروا عدم البروز وفضلوا الاستتار خلف حجاب "كاتب مجهول" .

ومما ينبغي منّا الوقوف عنده وقفة الشاكر الممتن، عمل المؤلف في تحقيق النّصوص وتصحيحها وتصويبها من التحريف والتصحيف مع حسن صنيعه في الإحالة والتهميش الذي لم يترك شاردة ولا واردة إلا

أتى على ذكرها وتيسيرها للقارئ حتى يجد متعة ولا يقعد به غموضها أو نشازها، عن إدراك المراد من نصّ الرحلة، كما لم يهمل التعريف بالأعلام والأماكن نظرا لكثرتها وأهميتها في أدب الرحلة و ترجمة أسمائها خاصة المدن التي كانت تحمل تسميات فرنسية ثم عربت بعد الاستقلال، ولم يغفل أيضا شرح الكلمات والألفاظ العامية الدارجة التي كانت توجد بين الفينة والأخرى في متن الرحلات، ومما لاينبغي أن يجهله القارئ أنّ نصوص الرحلات التي عكف الباحث عيسى بخيتي على جمعها كانت أشتاتا متناثرة تجاذبت أطرافها صحف عدة، وسير وتراجم مختلفة، وربما وجدها في مصادر أخرى مختلفة تماما وذلك اقتضى منه جمع جرائدها ولمِّ شواردها، وشدّ الرحال في طلب أجزائها حتى قدّر الله له أن يتم عمله ويوثقها في مجمع واحد.

**وصف خارجي الكتاب:**

**العنوان الكامل:** جمهرة الرحلات الجزائرية الحديثة في الفترة الاستعمارية 1830-1962 في ربوع الجزائر.

**المؤلف:** د عيسى بخيتي.

**جمع وإعداد وضبط وتحقيق وتقديم:** د. عيسى بخيتي.

**مؤسسة العمل:** جامعة بلحاج بوشعيب – عين تيموسنت – الجزائر.

**دار النشر:** المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – لبنان.

**الطبعة:** الأولى.

**سنة النشر**: 2017م / 1439هـ

**نوع الطبعة:** ورقي غلاف عادي.

**حجم الورقة:** 24سم x 17سم

**عدد الصفحات الإجمالي:** 2270 صفحة.

**الأجزاء:** سبعة أجزاء (07) (**ج1:** في ربوع الوطن – **ج2:** في ربوع الوطن – **ج3**: في ربوع الوطن – **ج4**: الرحلات الحجازية – **ج5**: الرحلات إلى أوروبا – **ج6**: الرحلة إلى المشرق – **ج7**: الرحلة إلى المشرق) .

**الجوائز الدولية:** فاز الدكتور عيسى بخيتي بالمرتبة الأولى في جائزة ابن بطوطة التي يقدمها المركز العربي للأدب الجغرافي _ارتياد الآفاق_، وهي مخصصة للبحث في أدب الرحلة وذلك في دورتها الثانية عشرة سنة 2016م ، وقد فاز في فرعين من فروع الجائزة، أمّا الجائزة الأولى فخاصة بتحقيق النصوص، نظير تحقيقه لكتاب: جمهرة الرحلات الجزائرية الحديثة في الفترة الاستعمارية (1830-1962) والجائزة الثانية في فرع

الدراسات، وكانت عن كتابه الموسوم بـ: أدب الرحلة الجزائري الحديث _سياق النص وخطاب الأنساق_ وقد حظي بتكريم من طرف اللجنة المنظمة على هامش معرض الكتاب بالدار البيضاء بالمغرب الأقصى،

**محتوى الكتاب:**

**الجزء الأوّل: في ربوع الوطن**

وهي رحلات تمت في ربوع الوطن ولم تجاوز حدوده المرسومة، وقد جمعها المؤلف في هذا الجزء خالية من النزعات الفكرية والحزبية وقد ضمّ هذا الجزء من الكتاب اثنتين وعشرين رحلة افتتحها برحلة عمر بن قدّور أحد روّاد الصحافة العربية في الجزائر، مؤسس جريدة الفاروق، وكان من المناهضين للاستعمار الفرنسي، وعنون رحلته بـ: سوانح الرحلتين الآفاقية والأخلاقية[6] وقد تضمن هذا الجزء أربع رحلات لإسماعيل مامي هذا الرحّال الذي كثيرا ما سمعت الدكتور عيسى بخيتي يثني عليه ويعتبره رائد الرحلة الجزائرية بل عَلَمًا ضيّعه قومه، "فهو إلى اليوم يعتبر نكرة في مجتمعه، بل حتى عند سواد المثقفين والدارسين، وبقي في عِداد النخبة الجزائرية المغمورة"[7] بل حتى أن المحقق احتار إلى أي جهة ينسبه فهو زيتوني التعليم، تارة يلوح بمظهر رجل الدين الذي ينافح عن الأخلاق والآداب الإسلامية، والذود عن حياض الإسلام والمسلمين والدفاع عن الأخلاق والشرف ثم تُلفيه تارة أخرى يميل للسلطات الاستعمارية ويباهي بخدمتهم زلفى لهم[8] ومن هنا بقي الإشكال قائما في نسبة إسماعيل مامي وفي خلفيته التي بقيت غامضة غموض شخصيته الأدبية والفكرية على الساحة الفكرية الوطنية.

ونجد في المرتبة الثانية من حيث عددُ الرحلات المدونة في هذا الجزء عبد الحفيظ الهاشمي صاحب جريدة النجاح التي وضع أسس انطلاقها عام (1919م) وله رحلتان خالصتان في ربوع الوطن، وضمّ الرحلة الثالثة للهاشمي المعنونة بـ رحلة للمغرب والأندلس إلى أختها لِعلّة عدم اكتمال النّص فيها على الرغم من تصريح عبد الحفيظ الهاشمي في بداية النّص الرحلي بأن خط الرحلة كان من مدينة تيارت إلى قرطبة بإسبانيا فيقول فيها: "قمنا برحلة طويلة ابتدأت من 18 أفريل إلى 3 سبتامبر وابتدأت من مدينة تيارت عمالة وهران وانتهت إلى مدينة قرطبة من بلاد الاندلس"[9] غير أن النّصّ الذي وصلنا يتوقف عند تلمسان المتاخمة للحدود المغربية، فلذلك عدها د.عيسى بخيتي من الرحلات الداخلية لا الخارجية[10]، كما ضم رحلتين لكاتبين مجهولين أولاهما في تقريض التمثيل والمسرح ومنافعه والثانية بكائية مرثية لحال الجزائر وما آلت إليه، وبقية الرحلات تداولها رحالون طوّفوا الأرجاء في بلاد الجزائر الفسيحة التي ضيقها قيد الاستعمار، وختم هذا الجزء برحلة سليمان الصيد المدونة عام 1953م.

**الجزء الثاني: في ربوع الوطن**

ضم هذا الجزء من الجمهرة مجموعة من الرحلات التي خاض غمارها رجال الإصلاح في الجزائر وكان توجههم في الغالب باديسيّ الهوى، إذ أنّ السواد الأعظم منهم تتلمذ في أحد فروع جمعية العلماء المسلمين

الجزائريين[11] أو اتصل بالشيخ المصلح عبد الحميد بن باديس مباشرة، وكانت رحلاتهم وظيفيّة هدفها دعوي إصلاحي يهدف إلى الإعلان للجمعية وجمع الاشتراكات وإرشاد النّاس، وبعضها كان هدفها السياحة والجولان.

ويعدّ هذا الجزء أضخم الأجزاء مادة كونه يحوي ما يناهز الأربع والثلاثين رحلة مسجلة بتراجم أصحابها ونستثني من ذلك عبد الرحمن الحسيني، محمد الطاهر الورثلاني، فرحات بن الدراجي، عبد الرحمن بن الحاج صالح أمّا البقية فكلّهم اجتهد صاحب الجمهرة في إعداد تراجم موفية لهم وبيان حالهم وتحقيق نصوصهم، وقد تصدّر هذا الجزء من حيث عددُ النصوص الرحلية الشيخ عبد الحميد بن باديس بأربع رحلات[12]، ومما يلفت الانتباه في هذه الرحلات الإصلاحية غياب أي رحلة للبشير الإبراهيمي المعروف بقلمه السيال وأسلوبه البديع في النثر، وربما يرجع ذلك إلى عدم التفاته إلى تدوين رحلاته الداخلية فيما تفرغ لتدوين رحلاته الخارجية.

**الجزء الثالث: في ربوع الوطن**

إذا رمنا الحديث عن الطرقية فلامناص من ربطها بالزوايا والتصوف، لأنها كانت منبعها الذي نبعت منه وعشها الذي عششت فيه فباضت وأفرخت، وقد كثرت هذه الطرق نظرا لكثرة الزوايا في ربوع الوطن ولتشجيع الاستعمار لها وترك هامش حرية لها تسرح وتمرح خلاله، فقد قربت فرنسا شيوخ هذه الطرق ومكنت لهم في الأرض، فكسبت ودهم وأمنت مكرهم، ومما يدلك على ذلك نص غلام الله الحاج محمد في رحلته التي يتحدث في مبدئها عن سيدي عدة بن غلام الله فيقول " وتتبعت الدولة (الفرنساوية)[13] أثره فوجدته ممتطيا صهوة فرس الحقّ، وتكلّم لها بكلام غيبيّ على ما قدّره الله لها من ملكية هذا الوطن في عالم الغيبة، فأقرّته على ما هو عليه ولم تتعرض له لِما علمت من حاله وكان من المعظَّمين عندها"[14] ولمّا قامت الجمعية الباديسية[15] وفضحت زيغهم وأهواءهم، أقاموا ضدّها حربا شعواء، وانتقصوا من رجالاتها، ولما كانت الصِّحافة آنذاك موضة العصر، ولسان حال الأمة أنشؤوا لأنفسهم منابر إعلامية لبث أفكارهم ومهاجمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. والرحلات التي جمعها د.عيسى بخيتي ووضعها بين أيدينا تكشف لنا ذلك الصراع المحتدم بين الجمعية من جهة وبين الطرقيين من جهة أخرى، وقد ضمّ هذا الجزء رحلات قام بها شيوخ الزوايا الطرقية من أجل الاتصال بمريديهم وأكفائهم في زوايا أخرى ولغرض التحذير من رجال الجمعية وأفكارها الإصلاحية التي تعارض أفكار الطرقيين ونِحلتهم، وكان نصيب هذا الجزء ثلاث عشرة رحلة (13) كلها تلهج بذكر مآثر الطرقية وأحوال منتسبيها، مع توجيه سهام النقد لكل أصناف الإصلاح، وهوامش هذا الجزء التي وضعها الكاتب أكثر فائدة من متون النصوص في الغالب فعلى القارئ المطّلع أن يوجه اهتمامه للهوامش ولا يغفلها فتضيع منه مادة علمية غزيرة ونكت وشح بها الكاتب جمهرته.

**الجزء الرابع: الرحلات الحجازية**

قسّم المؤلف د. عيسى بخيتي كتاب الجمهرة إلى قسمين قسم أول خصصه للرحلات الداخلية التي تمت في أقطار الوطن الفسيح وضمت رحلات عامة/رحلات إصلاحية/ رحلات طرقية والقسم الثاني خصصه

للرحلات الخارجية التي تجاوزت حدود وطننا مشرقا ومغربا، وقد افتتح القسم الثاني من الرحلات بأعظم الرحلات الروحية التي اشتاقت إليها النفوس منذ غابر الأزمان ومنذ أذن مؤذن الحج إنها الرحلة الحجيّة التي تضمن زيارة بلاد الحجاز وما جاورها، ففيها وصف للمسالك المؤدية للحج وما صاحب ذلك من مشاعر عظيمة و عواطف جمة.

وكان الافتتاح برحلة الأمير عبد القادر الجزائري (ت1883م) المقتطف نصّها من مذكراته، واللافت للنظر في هذه الرحلة هي طغيان التلميحات والتصريحات الصوفية على نصها[16]، وكذا الاستطرادات الكثيرة التي يخرج بها كثيرا الأمير عبد القادر عن مقتضى الرحلة وخط سيرها ليتحف القارئ بنكت من أخبار العرب ولطائفهم، وربما أراك في مواطنَ مقدرتَه اللغوية فراح يشرح ما استعجم في أبيات يستشهد بها، وربما أورد لك نتفا من أمثلة العرب المشهورة وقصّ موردها ومضربها، وربما أتحفك بطريفة من طرائف الأدب وسير الملوك لتبهجك وتسرّك[17] ومما تمتاز به هذه الرحلة دون غيرها من الرحلات هو كثرة الشواهد الشعرية، كما تضمن هذا الجزء من الرحلات رحلة مترجمة خاضها مصطفى بن أحمد الشرشالي عام (1916م)[18] ليصف فيها مشاهداته في رحلته الحجية المبعوثة من طرف السلطة الفرنساوية التي يسهب في مدحها، وقد كان رئيس الوفد الدبلوماسي في هذه الرحلة هو قدور بن غبريط الذي اضطلع بمهام رئيسة في الرحلة و بعدها، خاصة بناء مسجد باريس الذي سيكون إماما له في وقت لاحق، وهو شخصية أثارت الكثير من الجدل نتيجة لأعماله المشبوهة.

ورحلة الشرشالي تمت على إثر ثورة الشريف الحسين بن على ضد الدولة العثمانية من (1916-1918) وكان الشرشالي عضوا في الوفد الرسمي الذي اختارته الحكومة الفرنسية لتهنئة الشريف الحسين بانتصاره على الأتراك في الحجاز وإنشائه المملكة العربية[19] . ولم يميّز صاحب الجمهرة في هذا الجزء من الكتاب بين المتصوفة ولا الإصلاحيين ولا المفرنسين فقد جمع الكل في إناء واحد تحت مظلة الحج، وجمع في مجمله أحد عشر رحلة حجية من بينها رحلة لكاتب مجهول.

**الجزء الخامس: الرحلة إلى أوروبا.**

كانت الوجهة في هذه الرحلات في أغلبها صوب فرنسا واختصّت الرحلات الثلاث الأولى بميزة أنها رحلات تلهج بذكر فرنسا وتكاد تسبح بذكر محامد أرباب الأمر فيها وقوّادها وهي رحلات محسوبة على فرنسا وأصحابها معدودون في زمرة عملاء فرنسا ونخصهم بالذكر لشهرة أعلامهم فيما اشتهروا به من ولاء وبيع ذمتهم للغريب المحتل، وهم سليمان بن صيام، محمد السعيد الشريف، وأحمد ولد قاد)[20] ثم تلتهم رحلة تتلو تلوهم وتنهج سبيلهم وهي رحلة محمد بن الحسن بن الشيخ الفغون القسنطيني وهو أحد أكبر المتعاونين مع السلطات الاستعمارية آنئذ[21]، كما نلفى رحلات كان أصحابها ذا توجه إصلاحي (ابن باديس، مبارك الميلي، أحمد رضا حوحو، عبد الرشيد مصطفاوي، محمد بن العابد الجلالي، محمد الزاهي الميلي) ورحلة طرقية واحدة للمهدي بن الحاج بن عدة بن تونس[22] الذي قام بهذه الرحلة بهدف نشر طريقته في التصوف

وتوسيع نطاق الدعوة بأوروبا، كما نصادف في هذا الجزء بضع رحلات كانت وجهتها غير فرنسا بل اختارت وجهات أخرى كرحلة أحمد رضا حوحو إلى الاتحاد السوفياتي، ورحلة أحمد بن مناد إلى بولونيا وألمانيا ورحلات أخرى إلى كل من بلاد إسبانيا ويوغوسلافيا.

وقد كانت عدّة الرحلات في هذا الجزء الخاص بالرحلات الأوروبية تمام الواحد والعشرين (21) رحلة امتزج الغث فيها بالسمين، وتوفر فيها مالم يتوفر في غيرها من اختلاف الأهواء وتعدد الخلفيات الفكرية والملل ولا يجمع بينها إلا رابط الجزائر.

**الجزء السادس: الرحلة إلى المغرب:**

بحكم الجوار مع المغرب الأقصى وقرب المسافة بيننا وبينه من جهة والسعة التي عاش خلالها المغاربة من خلال ما يشبه الانتداب لا الاحتلال _ فشتان بين احتلال فرنسا للجزائر واحتلالها للمغرب وتونس_ من جهة أخرى كانت المغرب وجهة مفضلة للزيارة منذ العهود القديمة، أضف إلى ذلك ما يجمع البلدين من روابط ثقافية وتاريخية مشتركة، ناهيك عن تواجد مراكز الإشعاع الثقافي كجامع القرويين بفاس الذي كان محج الجزائريين من أزمنة الفتح الأولى، ونتيجة لذلك ظل المغرب الأقصى وجهة طيّعة محببة لأهل الجزائر، وقد برز في هذا الجزء الرحالة اسماعيل مامي _الذي إن أردنا إنصافا قلنا: إن الدكتور عيسى بخيتي أخرجه من غيابات النسيان وعرّفه للناس بعد أن كان نسيا منسيا، فالدكتور بخيتي سلط الضوء على رحلات الرجل وانتشلها من بين ركام الهجران ومن بين طيات الصحف القديمة البالية_ ولولا صنيعه لبقي اسماعيل مامي مجهولا لا يعرف ونكرة لا تتعرف_ =وهو قد خاض أربع رحلات قادته إلى المغرب الأقصى اختلفت أغراضها، كما نلحظ تضمن هذا الجزء من الرحلات لرحلتين لأبرز علمين مؤثرين من أعلام الطرقية في الجزائر هما أحمد بن عليوة بن مصطفى المستغانمي[23]، والحاج بن عدة تونس[24] وكل منها رأس في الطريقة وله أياد عليها، والزيارة إلى المغرب مفهومة لما بين البلدين من انتهاج مذهب التصوف الموروث عن الجنيد والذي ادخل عليه ماهو معلوم من الضيم الحيف حتى صار التصوف في أزمنة لاحقة ضربا من الخرافات والبدع الشنيعة لما ابتدعه بعض من ينسب لهم وينتسب بنسبهم، ففتحوا بذلك على أنفسهم بابا من السهام، ومظان للنقد من طرف الإصلاحيين، وأحدثوا شرخا لا يلتئم إلا بزوال هذه الشوائب.

وفي الجملة ضم هذا الجزء عشر رحلات افتتحت برحلة اسماعيل مامي في الغرب الجزائري والقطر المغربي، وختمت برحلة العلامة أحمد توفيق المدني الذي وضع لها عنوانا مقتبسا من القرآن الكريم وهو "ولسوف يعطيك ربك فترضى" وقد "قام الكاتب بهذه الرحلة لتهنئة الملك (محمد الخامس ملك المغرب بالعودة من المنفى إلى الرباط) ضمن وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"[25] أما عن العنوان فإنه "مقتبس من آية قرآنية نقله من لافتة تحت صورة الملك في المطار حملت تلك اللافتة هذه الكلمة[26] التي تسترعي اهتمام الناظر حالما تهوي الطائرة بأجنحتها القوية فوق مطار الرباط"[27]

**الجزء السابع: الرحلة إلى المشرق**

إن الحديث عن الرحلة إلى المشرق لابد أن نستذكر منه طريق الحج قديما، وكان دأب أهل المغرب إذا يمموا وجوهم شطر الحجاز قاصدين البيت العتيق وطيبة أن يضعوا لأنفسهم مخططا يقصدون من خلاله عواصم المشرق ومنابع الفكر ونوادي العلم والمعرفة، ولا شك أن زيارة تونس ومصر وبغداد ودمشق كانت ولا تزال من الفرائض التي ينبغي على المتوجه شرقا أن يؤديها ويقصدها.

وتختلف الرحلة الحديثة إلى المشرق عن الرحلة الحجازية قديما، فقد كانت الرحلة الحجازية قديما تتضمن الرحلة المشرقية، أما الرحلة المشرقية الحديثة فقد استقلت بنفسها عن الحجازية وقد عمل الدكتور عيسى بخيتي على الفصل بينهما في الجمهرة لاختلاف غرض كل منهما، وقد ضمت الرحلة إلى المشرق ثلاث عشرة رحلة كان النصيب الأكبر منها صوب تونس بحكم الجوار وسهولة الوصول إليها، إضافة إلى وجود جامع الزيتونة بها والذي كان مقصد طلبة العلم لدهور طويلة فبقي الحنين إليها مضمرا في الحشا والصدر.

وتضمن هذا الجزء رحلة وحيدة لفارس البيان ومجدّد عصره التليد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي[28]، وهي رحلة في ربوع الأقطار الإسلامية خاضها بغرض التعريف بالقضية الجزائرية وتدويل قضيتها التحررية، كما نلاحظ وجود رحلة وحيدة في الجمهرة كانت صوب تركيا موجودة في هذا الجزء لعبد الباقي الحسيني الجزائري، ورحلة لأحد المحسوبين على الطرقية في الجزائر إن لم يكن أحد أبرز أقطابها أحمد بم مصطفى العليوي المستغانمي. كما لم تخل السفريات إلى المشرق من ذكر مصر نظرا لأهميتها للجزائر في التاريخ الحديث ولمساندتها للثورة، فكانت محطة للعبور وللمّ شمل المجاهدين، وقد برز هذا الدور من خلال إقامة الشيخ البشير الإبراهيمي بمصر مندوبا لجبهة التحرير الوطني ومكلفا بالتعريف بالثورة خارجيا، وكما نلحظ حضورا لافتا لمحمد الغسيري بثلاث رحلات كلها مشرقية إحداها "(عدت من الشرق)" والأخرى وصف لزيارته لتونس (في الخضراء) والأخيرة حضر من خلالها (احتفال مصر الشقيقة بالكشافة الإسلامية الجزائرية)، فكان لزاما أن تكون الرحلة إليها مطلوبة ومرغوبة.

قد يلاحظ القارئ أنّ عدد الرحلات المشرقية قليل مقارنة بما كان يتوقعه، خاصة إلى مصر وتونس اللتين تربطهما بالجزائر روابط اللسان والدين، بالإضافة إلى أنهما كانتا وجهة كل قاصد لطلب العلم لتحصيل شهادة العالمية من الزيتونة والأزهر فقد ظل هذان الصرحان العلميان قبلة تُؤم من طرف الجزائريين لأزمنة طويلة ومنذ دهور قديمة، بيد أن الاحتلال الفرنسي في بداية الحركة الوطنية منع الارتحال وأصدر في ذلك قوانين جائرة، وضيّق على طلبة العلم سبل خروجهم، حتى زمن اندلاع الثورة التحريرية الذي ازدادت فيه الأمور صعوبة مع إغلاق المنافذ البرية صوب تونس، وغلاء السفر عبر الطائرة لعامة طلبة العلم، يضاف إلى ذلك أن التوجه العام في الفترة بين 1954-1962 كان صوب الثورة التحريرية المباركة وسبل نجاحها ودعمها، فكأن ذلك قد شغل أقلام الكتاب وفِكَرهم عن تدوين الرحلات والالتفات إلى وصف الآخر وما وصل إليه، ووصف ملذات الدنيا عند أقوام آخرين والقوم في البلد يخوضون معمعة الحرب ويدقون طبولها، ومما يدلك على ذلك كلمة العلامة محمد الغزالي وهو يتحدث عن الشيخ البشير الإبراهيمي في أحد مقالاته :" ..كان لقاؤنا بالشيخ البشير الإبراهيمي مصدر متعة أدبية وعلمية تجعل علماء القاهرة يُهرَعون إليه

ويتزاحمون عليه، ولكن الرجل كان يشرد بين الحين والحين، فنحسُّ أنّه معنا وليس معنا، كان جسمه معنا وقلبه معلقا بالجزائر يتحسس أبناءها ويتّبع العراك الدائر بين الإسلام والصليبية في هذه القطعة الغالية من دار الإسلام، وكنت أشعر بأنه يكتب إلى رجاله أو المسؤولين عن الكفاح الجزائري يشير عليهم بالرأي... وأستطيع الجزم بأنه ما ضعف يوما ولا استكان ولا يئس من روح الله، ولا شك في أن الله ناصر جنده ومعزّ المجاهدين المسلمين"[29]

**خاتمة:**

بعد التطواف في رحاب جمهرة الرحلات الرحلات الجزائرية نخلص في الأخير إلى نتائج بحثية نذكر من أبرزها:

- بذل الدكتور عيسى بخيتى جهدا عظيما في جمع وتصحيح وإخراج الرحلات على الهيئة التي هي عليها الآن، ولم يكد يُغفل أي رحلة دونت في هذه الفترة، فكل رحلة سمع عنها وهداه البحث إلى توفرها سعى إلى طلبها من مظانها واستطاع _بعون الله_ إخراجها للناس وإعادة إحيائها بعد أن كادت تكون رميما أو كانت.
- البحث في أدب الرحلات الجزائري الحديث هو بحث في أرشيف الصحافة الجزائرية لما لهذين الفنين من صلة قرابة فقد قام أدب الرحلة بالصحافة ونشطت الصحافة بالرحلات فكل استفاد من صاحبه وأفاد فلم تكن بدعة تدوين الرحلات الحديثة في كتب قد انتشرت، بل كانت الهيمنة للمقال الصحفي القصير الماتع الذي يدفع الملل ويقوم على التجدد اليومي، فالمقال أتاح لكل مسافر أن يدون يومياته الرحلية ويمتع بها القراء بشكل دوري وهو الأمر الذي لاقى صدى كبيرا ونجاحا. وبالتالي توزعت الرحلات على الجرائد وعلى الأعداد المختلفة التي يصيبها الانقطاع أحيانا، والاحتجاب أحيانا أخرى.
- الرحلات الحديثة حملت صراعا داخليا أثرى النتاج الأدبي في هذه الفترة العصيبة خاصة بين حزب الإصلاحيين وحزب الطرقيين ودعاة الفرنسة وغير أولائك، مما ساهم في إيقاد جذوة الأدب ومحاولة بعث النهضة الأدبية أسوة بمصر والمشرق عموما.
- اتجاهات الرحالة الجزائريين في العصر الحديث تنوعت واختلفت باختلاف خلفيات أصحابها واختلاف الأغراض التي تُؤم للرحلة، فالرحلة الحجازية غابت عن الساحة وخفتت نارها بعد أن كانت لها السطوة لقرون عديدة وذلك راجع إلى تطور وسائل النقل الحديثة وقصر المسافة، وحلّت محلها وجهات جديدة.
- مجمل الرحلات الحديثة تحمل تأريخا للفترة الاستعمارية وتدلل على الموروث الثقافي العتيق لهذا البلد الضارب في أعماق التاريخ.
- كتاب جمهرة الرحلات الجزائرية الحديثة بكل رحلاته الغثّ منها والسمين يعتبر مرآة عن الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية الجزائرية إبان الاحتلال الفرنسي، ومرجعا مهما للدراسات التاريخية في هذا الميدان لما احتواه من يوميات وصراعات وتجاذبات بين مكونات المجتمع وأطيافه ومعاصرته للتقلبات والصراعات العالمية التي كانت تسير بالتوازي مع الصراع الداخلي.

**الحواشي:**

[1] ذكر أبو القاسم سعد الله في مؤلفه "مجموع رحلات" في حديثه عن ترجمة ابن حمادوش ما نصّه : **فقد ولد في مدينة الجزائرسنة 1007هـ (1695م) وتوفي بعد حوالي تسعين سنة في مكان وتاريخ مجهولين**"، ونحن اعتمدنا هذا التاريخ (1785م) كتاريخ تقريبي لوفاته وفقا لرواية أبي القاسم سعد الله.

[2] أبو الحسين أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تح عبد السلام هارون، دار الفكر، 1979، ج1 ص 487 مادة جهر

[3] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر،بيروت، ط1، ج4، ص149 ، ، مادة جهر

[4] بطرس البستاني ، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1987، ص126، ، مادة جهر

[5] عيسى بخيتي، جمهرة الرحلات الجزائرية الحديثة في الفترة الاستعمارية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط1، ص أ

[6] عيسى بخيتي، الجمهرة، ، ج1، ص3

[7] المصدر نفسه، ص13

[8] ينظر ترجمة إسماعيل مامي في الجمهرة، ص13

[9] عيسى بخيتي، الجمهرة، ج1، رحلة للمغرب والأندلس لعبد الحفيظ الهاشمي، ص118

[10] عيسى بخيتي، الجمهرة، ج1، ص118

[11] جمعية العلماء المسلمين الجزائرين: هي جمعية إسلامية هدفها إصلاحي، تأسست 1931/05/05 ضمت نخبة العلماء وأهل الفكر في تلك الحقبة بزعامة رائد الإصلاح الشيخ عبد الحميد بن باديس ونائبه الشيخ البشير الإبراهيمي ومازالت قائمة إلى يوم النّاس هذا برئاسة الدكتور عبد الرزاق قسوم

[12] ينظر: عيسى بخيتي، الجمهرة، ج2 ص41-54-63-77

[13] مابين قوسين ليس من النّص الأصلي وإنّما زدناه لتوضيح النص وعدم كسر سياقه. راجع الجمهرة ص6

[14] هاء الغيبة في هذا المقتطف تعود على سيدي عدة بن غلام الله. راجع الجمهرة، ص6

[15] جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

[16] وهذا راجع للتكوين الصوفي الفلسفي للأمير عبد القادر الجزائري.

[17] ينظر عيسى بخيتي، الجمهرة، ج4، رحلة الأمير عبد القادر الجزائري، ص12-16-17

[18] رحلة أحمد بن مصطفى الشرشالي ترجمها الدكتور أبو القاسم سعد الله ونقلها عن الفرنسية.

[19] أبو القاسم سعد الله، مجموع رحلات، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011، ج2، ص105

[20] سليمان بن صيام رحلته: الرحلة الصيامية، محمد السعيد الشريف: الرحلة الفرنسية، أحمد ولد قاد (قاضي): الرحلة القادية في مدح فرنسة وتبصير أهل البادية. وهي رحلات معدودة اشتهرت بضعفها الفني، وتبجيلها لفرنسا، وانبهار أصحابها بكل ما هو فرنساوي.

[21] محمد بن الحسن بن الشيخ الفغون القسنطيني، كان مترجما في الجيش الفرنسي وساعده في ذلك تمكنه من الثقافتين العربية والفرنسية، رحلته لم تشتهر كسابقيه، إلاّ أنّ فيها ما في الصيامية والقادية من كيل للمديح لفرنسا وانبهار بما فيها من طرقات ووسائل النقل وأزقة وتنظيم جيوش وغير ذلك، والملاحظ هو طغيان الكلمات الفرنسية المغيرة عن شكلها فلاهي فرنسية ولاهي عربية، كما أن هذه الرحلة هي رحلة تتحدث عن الجيوش وتنظيمها أكثر من حديثها عن الرحلات، لذلك لم يتم الاحتفاء بها ولم يكن لها ذلك الحظ من الذيوع والانتشار.

[22] مما يحسب لهذا الرجل أنه حاول إصلاح ذات البين بين الطرقيين والإصلاحيين، وكانت له أفكار اجتماعية واقتصادية تفوق زمانه ولكن لم يكتب له التعمير طويلا ليجسد أفكاره خاصة بعد تعرضه للإقامة الجبرية والنفي بجيجل ومصادرة الممتلكات.

[23] أبو العباس أحمد بن مصطفى بن عليوة المعروف بالعلاوي المستغاني مولدا ونشأة، ولد عام 1869 وتوفي عام 1934 كان رأس الطريقة العلاوية وعمل على نشرها في ربوع الوطن وحتى في البلدان المغاربية، وأنشأ جريدة البلاغ الجزائري للدفاع عن أفكاره وللردّ على الإصلاحيين، وقد دارت بينه وبين الجمعية ورجالاتها دوائر حملتها صفحات البلاغ والمنتقد وأضرابهما.

[24] تلميذ أحمد بن مصطفى بن عليوة المستغانمي ووريثه على رأس الطريقة العلاوية، ولد بمستغانم 1898م وتوفي عام 1952م، حاول السير على نهج شيخه وأدخل عدة إصلاحات على الزاوية العلاوية ومدّ في انتشارها، كما اهتم بالصحافة واشتغل بها وأصدر ثلاث جرائد وهي لسان الدين والمرشد وأحباب الإسلام.

[25] عمر بن قينة، اتجاهات الرحالة الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، د م ج ، الجزائر، 1995، ص190-191

[26] الكلمة : حتما يقصد بها الآية الكريمة، والعرب قد تطلق في كلامها الكلمة على الكلام الكثير، ككلمة لبيد، وكلمة ارجعونِ

[27] عمر بن قينة، اتجاهات الرحالة الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، ص 191

[28] على الرغم من طول ترحال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي إلا أنه لم يعبأ بتدوين رحلاته الكثيرة، فضاع عنا خير عميم من التراث الرحلي الذي كان سيكون بابا عظيما من أبواب الرحلة الجزائرية نظرا لتمكن الشيخ البشير الإبراهيمي من ناصية اللغة وقوة بيانه مع بلاغته، ولم يضم كتاب الجمهرة سوى رحلة واحدة للشيخ نشرتها جريدة البصائر العدد 194، السنة الخامسة 1952، وأعيد نشرها في كتاب آثار الإبراهيمي ج4 ص 23 وما بعدها.

[29] محمد البشير الإبراهيمي، أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم ابنه أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997، ج4، ص7